الفصل الثامن

عُشّاق وملوك

خلال سبعينات القرن الثاني عشر (1170م وما بعد) كان البابا في روما الرجل النشِط والمحافظ إسكندر الثالث. وقد استمر على الكرسي البابوي زُهاء اثنتين وعشرين سنة، كانت حافلةً بالتحديات من الباباوات المنافسين، والاضطرار للذهاب إلىٰ المنافي من المدينة المقدَّسة، والإذلال من جانب هنري الثاني الذي قتل توماس بيكيت. وطوَّر إسكندر الثالث سمعةً حسنةً بشأن اهتمامه لأمر الفقراء والضعفاء والمرضى. وكان حسّاساً إزاء محنة اليهود، ووضع بين مستشاريه المقربين يهودياً رِبيّاً عالماً أعطاهُ منصب مدبِّر قصر الفاتيكان. أمّا في الشأن الديني المتعلِّق باليهود، فقد كان إسكندر واحداً من أبناء زمانه، كما يشير لذلك أحد مراسيمه الأخيرة الصادر سنة 1179م: «إننا نأمر بأن يُحرمَ أولئك الذين يفضّلون اليهودَ على المسيحيين. ونجد أنه عدلٌ وحقٌّ أن يكونوا أدنى من المسيحيين. ولا يصحُّ الاهتمام لشأن أحدٍ من اليهود إلاَّ لدافعٍ إنساني...».

على أنّ همَّ البابا الرئيسي ما كان منصباً على المائتي يهودي بروما، بل على ملايين المسلمين في الأرض المقدَّسة، لأنه كان يدركُ ضعف المملكة اللاتينية بالقدس. وفي نهاية عهده بالبابوية ـ مات إسكندر الثالث سنة 1181م ـ

وجد البابا نفسَه مستنفَراً نتيجَةَ انتصارات صلاح الدِّين في فلسطين، ومهموماً لعدم اكتراث الملوك الأوروبيين لهذا الخطر الجديد. كتب البابا: «لا يستطيع الدين المسيحي أن ينام بينما تحدث هذه الأمور الفظيعةُ في الأرض المقدَّسة. فَلتَنَلْكُم غَيرةُ الرب ولتتحركوا!». وقد كان الأمر الأكثر إزعاجاً للبابا أولئك المسيحيون الذين يستفيدون من مكاسب المسلمين العسكرية. ولذلك فقد أصدر مرسوماً آخر سنة 1179م يهدّد فيه مرةً أخرى بالحَرْم الكنسي: «لقد وصلت درجةُ الشر والانحطاط لدى بعض الناس إلىٰ حدودٍ غير معقولة. فبينما ينالُهُم المجد لانتسابهم إلىٰ المسيح والمسيحيين، إذا بهم يحملون السلاحَ إلىٰ العرب. وعندما يفعلون ذلك بالسلاح والعُدَد الأُخرى التي تُستخدم ضد المسيحيين يعتبرونهم أنداداً لهم، بل أعظم منهم شراهةً وخبثاً. ولذلك فإننا نأمر بإخراج هؤلاء من سرّ الاعتراف، ونرى أنّه بسبب شرورهم ينبغي أن يُحرموا من الكنيسة أَو يُخرَجوا منها». أمّا همُّ البابا إسكندر الآخر فقد كان النزاعات الداخلية بين الملوك والأُمراء في وسط أوروبا. فكم كانت سخيفةً وبدون داعٍ تلك النزاعات التي لا تتوقَّف بين الكبار والصغار من الفرسان، في عصر الفروسية ذاك. وهي النزاعاتُ التي تصرفُ الانتباه عمّا يجري في الأرض المقدَّسة في المشرق. فالتاجان الفرنسي والإنكليزي ينبغي أن يتعاونا إذا كان لا بد من التركيز على الأخطار الحقيقيَّة التي تهدّد المسيحية. لكنّ تلك المصالحة ما كانت أمراً سهلاً على البابا، الذي عاقب ملك إنكلترا بقسوةٍ في قضية بيكيت Becket. ومع ذلك فإنّه أعطى موافقته وبركته على المصالحة التي جرت بين الدولتين في جيسور Gisors سنة 1180م؛ مع أنّه لم يكن يملك أوهاماً حول إمكانيات استمرار ذاك السَّلام. فبالنسبة لإنكلترا قام الملك هنري الذي كان قد أصبح أكثر قسْوةً ومزاجيةً، بما تمليه تقاليد الشرف والمصلحة. أمّا في فرنسا فإنّ الملكَ كان جديداً؛ وهو الشاب فيليب أغسطس، ابن لويس السابع من زوجته الثالثة أديل دو شامباني Adèle de Champagne. وقد جاء مولده سنة 1165م شبيهاً بالمعجزة، لأنَّ أمه حملت به حين كان والده الورع المنعزل لويس

السابع في الخامسة والأربعين من عمره، وقد فشل في الإتيان بطفلٍ وريث مع زوجتيه السابقتين، اللتين كانت إحداهما إليانور المتهتكة. ولهذا فقد اعتبر الفرنسيون هذا الولد هديةً من الله، لأنّ مجيئه أمَّنَ بقاءَ المُلْك في أُسرة كابت Capet العريقة؛ في حين أغضب ذلك أُسرة بلانتاجينيه المالكة بإنكلترا والتي تصدرها آنذاك هنري وابنه ريتشارد. تدفق مواطنو باريس إلىٰ الشوارع عندما سمعوا النبأ حاملين الشموع، وسادّين آذانهم نتيجة ارتفاع أصوات أجراس الكنائس فرحاً وابتهاجاً. وقد رفع هؤلاء العوامّ قبضاتهم في وجه الإنكليز منذرين بأنّ هذا الطفل سيكون مطرقةً على البلانتاجينيه البريطانيين. وقالت امرأةٌ فرنسيةٌ لرجل إنكليزيٍ رأته في الشارع: «والآن، لقد حظينا بملكٍ نعمةً من الله. إنه الوارث الكبير للمملكة ببركة الرب. وبمجيئه سيقع على مليككم الخُسْران والغضب الإلهي، والعار، والعقاب القاسي. وستكون أيامه الباقية مليئةً بالارتباك والتعاسة».

والواقع أنّ العداوة المتأصلة بين أُسرة كابت Capet المالكة بفرنسا، وأُسرة بلانتاجينيه Plantagenet المالكة بإنكلترا كانت إحدى حقائق القرن الثاني عشر الميلادي. ولهذا فمنذ البداية كان فيليب مدفوعاً بِحُلُم إخراج البلانتاجينيه من القارّة، وطموح العودة إلىٰ أمجاد شارلمان الذي سيطر على كلّ وسط أوروبا. وبدورهم البريطانيون تشاءموا بولادة فيليب. وبخاصةٍ أنّ الولادة حدثت في وقتٍ كان الجيش البريطاني يُعاني من هزائم، وقد اقترن كوكبان في سماء إنكلترا. وقد قال المنجمون يومَها إنّ هذه الأحداث السماوية أَو الفلكية لا تكونُ إلاَّ نذيراً بموت ملكٍ أَو دمار دولة. كان فيليب طفلاً مُهملاً، وكانت ملابسُهُ الأميرية غير مرتّبةٍ أَو نظيفة دائماً. ثم إنّ شعره كان مشعَّثاً باستمرار. وفي سنة 1179م أُصيب والدُهُ بشللٍ أقعدَهُ. ولأنه خاف أن يموت قريباً، فقد سارع إلىٰ تتويج ابنه فيليب وريثاً في حياته. مع أنّ فيليب وقتَها لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر. وهكذا كان على الطفل أن ينمو بسرعة!

The Plantagenet Empire

إمبراطورية بلانتاجينيه الأسرة الحاكمة في فرنسا في القرن الثاني عشر

جرت الاحتفالاتُ بتتويج فيليب في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1179م، في مدينة ريمز Rheims التي كان أسقفها غيوم دو شامباني عمَّ فيليب. ومن أجل الاحتفالات، سارع شعراء التروبادور إلىٰ صَوغ القصائد، وكان من بين هؤلاء بلوندیل دو نوزل Blondel de Nosle، أحد زملاء ريتشارد في طفولته في أكيتان: «دفعني فرحي إلىٰ الغناء في هذا الفصل المنعش. ويتبع هذا الفرحَ أن نحبَّ بطريقةٍ رائعة. وعندما تسنح الفرصة لإعطاء الهدايا بكرامة، وللتكلم بلغة البلاط؛ فإنّ الذي يتبع هذه النصائح لن يكون حظه سيئاً». وجاء في أغنيةٍ أخرى التوقع التالي: «ربيعٌ من السلام تتفتح فيه أزهار الأرض». ولهذا لم يكن عجيباً أن تنهمر الدموع بحريةٍ في حفلات الزفاف والتتويج. وهكذا فلأحد عشر شهراً حتى وفاة لويس السابع في أيلول/ سبتمبر 1180م، كان في فرنسا ملكان.

كان فيليب أغسطس أصغر من الأمير ريتشارد قلب الأسد بثماني سنوات. وربما انجذب أحدُهُما للآخر بسبب اختلاف طبائعهما لا بسبب اتفاقها. وعلى أي حال؛ فإنّ الشابين كانا في زمان مراهقتهما وشبابهما عشيقين. وكانا يُشاهَدان معاً في كل مكان ـ ولذلك كان هناك الحديث عن العلاقة العميقة من الحبّ التي تجمعُ بينهما، وإن باسم الجنسية المثلية. يقول جيرالد، الشمّاس من ويلز؛ «إنّ أحدهما كان يحب الآخر حباً جارفاً إلىٰ حدّ أنّ ريتشارد وفيليب كانا يشربان من كأسٍ واحدة، وفي الليل كانا يبيتان في سريرٍ واحد. وكان ملك فرنسا يحب ريتشارد كما يحب نفسه». وقد جاءت هذه الحميمية نتيجة التقارب الذي حصل بين الأُسرتين المالكتين بعد نزاعٍ طويل. ولسنواتٍ عدة كان الملك هنري والد ريتشارد يلتقي مع نظيره الفرنسي لويس ثم ابنه فيليب تحت شجرة دردارٍ مشهورةٍ في جيسور Gisors وهي مدينةٌ بشمال فرنسا. وخلال هذه المؤتمرات تعارف الفتيان وتلاقيا. وكانت جيسور في ذلك الزمان عاصمة إقليم ڤاكسن Vexin، وهو ناحيةٌ خصبةٌ من نواحي النورماندي، شكّل حداً فاصلاً بين المملكتين وكان كلٌّ من الملكين يدّعي ملكيته. وفي ثمانينات القرن الثاني عشر

كان هنري الثاني قد تقدَّمت به السن، واقترب منه الموت. وكان شديد التذمر من كلّ شيءٍ: من البيرة السيئة والسمك السيء الطعم ـ ومع ذلك فقد كانت تتبعه في مسيرته قافلةٌ من النسَاء، والممثلين، واللاعبين، والمهرّجين. أمّا هو فكان يحيك في مخيلته أوهاماً عن زياراتٍ لضريحي الملكين الأسطوريين آرثر وجنيڤر. ولأنّ الملك هنري تعب من النزاع على ڤاكسِن Vexin، فقد توصل الملك الشاب فيليب ومستشاريهما إلىٰ اتفاقٍ حولها. فحصن جيسور Gisors والأراضي التي حوله ستكون مهراً لأخت فيليب غير الشقيقة الجميلة أليس Alais، التي خُطبت لريتشارد سنة 1161م عندما كان عمره أربع سنوات! وقد نشأت أليس في بلاط إليانور كما أراد ريتشارد، فلمّا كبرت أقام هنري، نهّاز الفرص معها علاقةً من خارج الزواج، مما أساء لسمعتها، وأغضب أخاها فيليب وأحبط خِطَطَهُ، وأساء للعلاقة بين الأُسرتين؛ في حين كان ريتشارد غير آبهٍ بكلّ ذلك، وغير راغبٍ في علاقاتٍ زوجيةٍ شرعية. وهكذا دارت دسائس البلاط وخصوماته في دائرتين اثنتين. من جهة كان هناك هنري العجوز الشرس، وزوجته إليانور السجينة، وجميلة البلاط أليس. وهؤلاء الثلاثة كانوا غاضبين كلٌّ منهم من الآخر، كما يبدو في الرواية العصرية: الأسد في الشتاء The Lion in Winter. ومن جهةٍ أخرى كان هناك ريتشارد وفيليب وأليس. وكان ذلك مثلثاً من نوعٍ آخر. فريتشارد وفيليب كانا متحابَّين. بيد أنَّ ورقة فيليب للحصول على ڤاكسن Vexin ومبلغ كبير من المال كانت شقيقته أليس. ولذلك فقد طلب من ريتشارد أن يتزوج أخته. ومع ذلك فإنّ هذه الوقائع لا تحيط بكل تعقيدات الموضوع. فقد كانت هناك علاقةٌ بين هنري الثاني وأليس حافلة بالمسرّات الجسدية، وهناك علاقة بين ريتشارد وفيليب، وهناك أخيراً حُلُم الملك الشاب فيليب في إعادة تكوين مملكة شارلمان في وسط أوروبا، كأنما سيعيش إلىٰ الأبد. أما الملك هنري فلم يكن راغباً في إعطاء أيّ سلطةٍ لأحدٍ من أبنائه في حياته وبخاصةٍ ريتشارد. بل إنه فكّر لسنواتٍ طويلةٍ في أن يجرِّد ابنَه ريتشارد من أي حقٍ في العرش أو في الإقطاع. فإذا كانت إليانور

فضَّلت ريتشارد من بين جميع أبنائها؛ فإنّ هنري كره ابنه الثالث بالذات، لأنه كان غير سلِس القياد، وطامحاً للمُلك، وشديد الشبه بوالده في طباعه. ولأنّ دوق أكيتان (ريتشارد) لم يحصل على الدوقية من طريق أبيه بل من طريق أمّه؛ فقد كان هنري يبحثُ عن طريقةٍ للتخلّص مما كان يراه تهديداً لسلطته. لذلك فبدلاً من ريتشارد نقل هنري عواطفه وإيثاره إلىٰ ابنه الأصغر جون، أقلّ أولاده صلاحيةً وكفاية.

بين سنتي 1180 و1187م تركَّز اهتمام البابا إسكندر الثالث على النزاعات المتكاثرة والمشرذِمة بين البيوت المالكة والإقطاعية في أوروبا، والتي وصلت إلىٰ حالة فوضى كاملة. فبيت بلانتاجينيه الكبير كان في نزاعٍ مع نفسه ومع رعاياه ومع الخصم الفرنسي من بيت كاپت. ففيما بين سنتي 1180 و1183 طلب هنري الثاني من ابنه ريتشارد أن يبايع أخاه الأكبر هنري (الصغير) باعتباره ملك أنغفين Angevin. وعندما رفض ريتشارد أغار الأخ الأكبر (هنري) على أكيتان؛ بموافقة ودعم والدهما هنري الثاني؛ الذي قال عبارته المشهورة لابنه هنري: إنهض واكسِر كبرياء ريتشارد! أمّا الأخ الصغير لريتشارد جيوفري، والذي أعطاه والدُهُ أصغر الإقطاعيات، إقطاعية بريتاني Brittani فقد سارع للانضمام لأخيه الأكبر هنري بحماس، في الإغارة على إقطاعية أخيهما ريتشارد. بيد أنّ الثائرين على ريتشارد ما كانوا محظوظين بانضمام جيوفري إليهم. فقد كان كما وصفه كاتب الحوليات جيرالد أوف ويلز: «مملوءًا بالكلمات الطنَّانة، لزجاً مثل الزيت، مسحوراً بنفسه وبقدراته البلاغية، مؤمناً بإمكان إفساد المملكتين بلسانه الذرِب، مغامراً لا يكلّ، منافقاً في كل شيء، وخدَّاعاً وشريراً». كان الشاب شخصيةً مليئةً بالمشاكل إذن. انتشرت الفوضى والمعارك، مع قوّاتٍ هاجمت أكيتان من بريتاني ومن غسْقونيا، بينما انصرف البارونات إلىٰ تحصين أنفسهم داخل قلاعهم ضد سادتهم. وقد رأوا في هنري الصغير أداةً للتخلّص من حكم ريتشارد وسيطرته، ولذلك فقد كانوا مسرورين للانضمام إلىٰ المؤامرة. أما

ريتشارد فقد واجه الأمر بطريقةٍ مختلفة. خرج في الليل بقوةٍ صغيرةٍ، وضرب ضربته ضدّ إحدى كتائب المتمردين على مبعدة أميالٍ من ليموج Limoges، فقتل بعضاً من الفرسان، وأسر البعض الآخر. ثم مضى قُدُماً كأنما يريد تعميق شهرته بالقسْوة وسفك الدم عبر أوروبا، فوصل إلىٰ أكس Aix حيث عمد، تبعاً لما يقول كاتب حوليات، إلىٰ إغراق بعض الأسرى، وقطع رؤوس آخرين بالسيف، كما سمل عيون الباقين. وهكذا فما بدا في ذهن هنري باعتباره حملةً لمعاقبة ابنه ريتشارد وتأديبه، تحوَّل إلىٰ كارثةٍ كبرى، اضطرت الملك العجوزَ نفسه للمجيء إلىٰ بواتو Poitou من أجل إعادة الأمور إلىٰ نصابها. في ذلك الوقت (حزيران/ يونيو 1183م) مرض هنري شقيق ريتشارد ثم مات، فتوقّف الجنون. فقد أُحبطت بذلك خطط الملك هنري الثاني إحباطاً تاماً. وصار الشرير نفسه، المستبد، وغير المنضبط، والقاسي أكبر أبناء هنري سناً، وبذلك صار الأحقّ بولاية العرش الإنكليزي. عندها حاول الملك الإنكليزي العجوز سلوكَ طريقٍ أُخرى. فما دام ريتشارد قد صار وارثاً لعرش إنكلترا؛ والنورماندي، وأنجو؛ فإنَّ أكيتان ينبغي أن تُعطى لشقيق ريتشارد الأصغر جون؛ الذي لم يكن له أي إقطاع. وهكذا طلب هنري من ريتشارد أن يعطي أكيتان لشقيقه، وأن يتلقى بَيعَتَهُ في مقابل ذلك. وكانت تلك فكرةً لا أرجُلَ لها لأنّ أكيتان كانت حياةَ ريتشارد. فقد تلقى الإقطاعية من أمه وليس من أبيه، وإذا كان هناك أحدٌ ينبغي أن يَدينَ له بالولاء فهو ملك فرنسا، ولا أحد غيره. وتلا ذلك ردّ فعلٍ سريعٍ من جانب ريتشارد: لن يعطي بواتو Poitou لأحدٍ إلاَّ لنفسه. وعندما خفّض هنري مطالبه، ورأى إعطاء جزءٍ من أكيتان فقط لجون، رفض ريتشارد أيضاً. وهكذا، فكما كانت عادة هنري في حالات الضيق والغضب والتي قادته إحداها لقتل توماس بيكيت، غضب غضباً شديداً وسمح لابنه جون بالإغارة على ممتلكات ريتشارد في أكيتان.

غضب هنري الثاني من ابنه ريتشارد أدَّى إلىٰ حربٍ مرةً أخرى بدفعٍ من

الملك هنري نفسه، الذي كان يثير الحروبَ بين أبنائه ثم يتوسط لإخمادها ومصالحتهم. ومن أجل ذلك فإنّ العلاقات داخل بيت بلانتاجينيه أوشكت أن تتحوّل إلىٰ ما يشبه الكوميديا الفرنسية. وكأنما لم يكف ما في الموقف من تعقيد؛ فقد تدخّل ملك فرنسا فيليب طالباً من محبّه السابق أن يتزوج أخته أليس، التي كانت حتى ذلك الوقت عشيقةً لهنري والد ريتشارد. أما أولاد هنري فقد كانوا تارةً يلقون أنفسهم أمام قدمي والدهم مقسمين على طاعته والتحابّ فيما بينهم، وطوراً يشنون الحرب عليه. كما كان يقيمون أحياناً في البلاط الإنكليزي، وأحياناً أخرى في البلاط الفرنسي. وبعيداً عن هذه الأجنحة المتحاربة، كانت إليانور أمّ هؤلاء الأولاد، تقبع في السجن، شاهداً عديم الحيلة. وبما أنّ جيوفري أمير أنغفن Angevin كان مقيماً في بلاط فيليب ملك فرنسا؛ فإنّ هذا الأخير وجد نفسه إلىٰ جانبه، وهو الأخ الأصغر لريتشارد، والأكثر فَشَراً ولزوجةً. وقد أعطاه لقب سيد فرنسا الإقطاعي، نكايةً بوالده العجوز هنري الثاني. لكنّ جيوفري الرياضي قُتِل في مبارَزةٍ في 19 آب/ أغسطس 1186م، ودُفن في احتفالاتٍ مهيبةٍ بكنيسة نوتردام. وقد كان حزن الملك فيليب عليه عظيماً إلىٰ حدّ محاولة القفز إلىٰ تابوته أثناء الجنازة. بيد أنّ الملك ما لبث أن تجاوز حزنه. ففي ربيع سنة 1187م عاد فيليب بعواطفه باتجاه ريتشارد. وعندما وصلت أخبار العلاقة المتجدّدة إلىٰ هنري اشتدّ غضبه، وتساءل عمّا تعنيه هذه «الصداقة». وسرعان ما اكتشف الملك العجوز أبعاد التحالف. فقد ركب ابنه ريتشارد إلى شينون Chinon، واستولى على قلعة الملك هنري على نهر اللوار Loire، ومن هناك أخذ كلَّ خزائنه وكنوزه وعاد بها إلىٰ أكيتان، حيث بدأ بجمع جيشٍ عرمرم لمقاتلة والده.

لكنْ مع نهاية سنة 1187م جاءت أنباءٌ مفاجئةٌ ومرعبةٌ من العالم البعيد، غطّت على الخصومات الملكية، والنزاعات الصغيرة إلىٰ الأبد، وشدّت الانتباه إلىٰ أمورٍ أخرى.